

الفصل الأول

معنى التربية الإسلامية

لا بُدَّ أن نُعطِّر أسماعنا بمعاني التربية من خلال المعاجم اللغوية ، ونقتطف من جناها أزهير خلابة ، ونستروح في أفيائها ، بينما تخفق المعاني بين حنايا الضلوع؛ لتغرس في القلوب الصافية غراس الخير الوفير ، والاهتداء إلى أسرار الألفاظ الذهبية .

ويحلون بنا أن نلجَ حديقةَ «لسان العرب» فنجد ابنَ منظور يقول :

«رَبَا الشيءُ يَرْبُو: زاد ونما. وأربيته: نمَّيته. وقد رَبَوْتُ في حجره ، ورَبَيْتُ: نشأتُ فيهم. قال مسكين الدارمي :

ثَلَاثَةُ أَمْلاكٍ رَبَوُا فِي حُجُورِنَا فَهَلْ قَائِلٌ حَقًّا كَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ؟!

وأنشد ابنُ الأعرابي :

فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّي فَإِنِّي بِمَكَّةَ مَنْزِلِي وَبَهَا رَيْبْتُ

وقال الجوهري: رَبَّيْتَهُ تربيةً ، أي: غَذَوْتُهُ . وهذا لكلُّ ما يَنْمِي كالولد والزرع ونحوه»^(١).

فالتربية: الزيادة والنماء وتغذية الجسم وتربيته .

وذكر الإمام البيضاوي بعض معاني التربية ، فقال :

(١) لسان العرب ، مادة: ربا (١٤/٣٠٤).

«الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية ، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً»^(١).

أمّا العلامة الراغب الأصفهاني فقال :

«الربُّ في الأصل: التربية ، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام»^(٢).

وذكر الفيروز أبادي أن التربية تحمل معنى الإصلاح ، فقال :

«رَبَّ: جمع وزاد ، وربَّ الأمر: أصلحه. والصبيُّ: ربَّاه حتى أدرك. والربيبة: الحاضنة»^(٣).

وُستعمل كلمةُ التربية بمعنى التهذيب وعلوَّ المنزل ، وقد ذكر ذلك الزمخشريُّ ، فقال : «ومن المجاز: فلان في ربّابة قومه: في أشرفهم»^(٤).

ونلاحظ أن للتربية عدة معانٍ ، هي :

※ الزيادة والنماء. وذلك حين يتزوّد الطفل بأنواع المعرفة ، وألوان الثقافة ، فيتغذّى عقله ، وتكبر مداركه ، فيزكو ويسمو. علاوةً على نماء جسمه ، بسبب تغذيته ورعايته صحياً ، وتأمين ما يحتاج إليه من مأكّل ومشرب؛ ليعرّع بعافية جيدة ، ويشبّ عن الطوق بقوة ، فيتحمّل تكاليف الحياة ، وتبعاتها ، وقد تربّى جسمه ، ونما عقله ، وصفت نفسه ، وزكت روحه.

※ ومن معاني التربية: الإصلاح والتهذيب ، حيث تُبذل جهودٌ كبيرة ومستمرة لرعاية الطفل ، وإصلاح أحواله ، وعدم إهماله . بدءاً من الأسرة ، مروراً بالمدرسة ، والمسجد ، ودور العلم ، ووعظ العلماء ، وقراءة

(١) تفسير البيضاوي (٣).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (٣٣٦).

(٣) القاموس المحيط ، مادة: الرب (٧٠/١).

(٤) أساس البلاغة ، مادة: ربو (٢١٩).

الكتب ، وسماع البرامج الهادفة . . . وهذا وغيره يساعد في إصلاح الطفل ، وإثراء نفسه بالعلم المفيد ، والنهج السديد ، إذ يرتبط طَلْبُ العلم بمناهج التربية ، مما يعطي الأطفال مع مرور الوقت خبرات ومهارات وتوجيهات ، تساعد على تحقيق أهدافهم في الحياة ، فلتربية دورها الرائد ، وأثرها العميق في توجيه ميول الطفل ، ورَبْطه بالأخلاق الحميدة ، والعلاقات الإنسانية الراقية ، وكبح جماح الشهوات ، ورَفْع القوى نحو الخير والصواب .

وللمعلمين مجال رحب في إصلاح الأطفال ، وحُسن توجيههم ، ولذلك سُمِّي العلماء بالربانيين ؛ قال ابن حجر : «سَمُّوا بذلك لعلمهم بالرب سبحانه وتعالى ، وقيل : الرباني : الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره ، أي : بالتدريج . والتربية : القيام على الشيء وإصلاحه»^(١) .

«وقد فسّر ابنُ عباس الرباني بأنه : الحكيم الفقيه ، ووافقه ابنُ مسعود . . . وقال الأصمعي والإسماعيلي : الرباني : نسبة إلى الرب ، أي : الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل . وقال ثعلب : قيل للعلماء : ربانيون ؛ لأنهم يربُّون العلم ، أي : يقومون به . . . والمراد بصغار العلم : ما وضح من مسائله ، وبكباره : ما دقَّ منها . وقيل : يُعَلِّمهم جزئياته قبل كليّاته ، أو فروعه قبل أصوله ، أو مقدّماته قبل مقاصده»^(٢) .

وقد أوردنا الأقوال السابقة كدليل على ارتباط التربية بالعلم ، وضرورة توجيه الطفل التوجيه الرشيد الصحيح ، على مقدار تقبُّله ، ووفقاً لقدراته النفسية ، وصولاً به إلى مدارج الكمال ، ومراقي الفلاح .

❖ ولا بُدَّ من أن ترتبط التربية بمفهوم التدريج ، وذلك أن التثقيف يخضع لمراحل عديدة ، وكميات متباينة من المعلومات ، وكل مرحلة يمرُّ بها الطفل

(١) فتح الباري ، المقدمة (١٢١) .

(٢) فتح الباري (١/ ١٦١ - ١٦٢) .

تحتاج إلى رعاية خاصّة ، ومعرفة بقدرات الطفل ، ومدى استيعابه للعلم والتربية ، فهذا يتطلب دقة في التنظيم ، والضوابط ، والمهارات في تلقين الطفل ما يحتاج إليه ، وجعله عنصراً فاعلاً لا منفعلاً ، وذلك بإثارة تفكيره ، والعناية بروحه ، وتحقيق حاجاته العلمية والنفسية وغيرها .

وإلى جانب ذلك لا بُدّ من مراعاة الفروق الفردية بين الأطفال ، سواء في مرحلة ما قبل المدرسة أو مرحلة ما بعدها .

وجاء الإسلام منعطفاً مهماً في التربية ، حيث ركّزت التربية الإسلامية على عدّة نقاط ، أهمها :

أ - تحقيق التوازن بين حاجات الإنسان على مختلف الأصعدة : المادية والروحية والاجتماعية ، فتلقى الإنسان تربية متوازنة ، منضبطة .

ب - التركيز على الجانب العملي ؛ ليتمّ تأهيل الفرد تأهيلاً سلوكياً ، وبالتالي ينطلق في رحاب الحياة يحقق المسؤوليات الملقاة على عاتقه ؛ بكل جدارة واقتدار ، فمسؤوليات الحياة والدعوة تقتضي تشكيل شخصية عملية ، قوية الجسد ، صافية الروح ، عميقة التفكير ، راجحة العقل ؛ لتجسيد متطلبات الإسلام في حيّز الواقع ، تجسداً يحقق المأمول ، وفيه بالهدف المقصود .

ج - الاستفادة من منطق التطور الإنساني ، واختلاف مظاهر الحياة عبر الأزمنة وتعدّد الأمكنة ، فلم تكن التربية متوقعة على ذاتها ، فالمفاهيم العامة التي تلقّاها المسلمون أهّلتهم للتكيف مع المطالب الجديدة ، فكان الاجتهاد أمراً مُتممّاً ، لا يخرج عن نطاق النظرية الإسلامية التربوية ؛ فالتربية عملٌ منسجم مع قوانين الحياة والفطرة والتطور ، وتناسق لا تنفصم عراه مع الكون والحياة والأحياء ، فعملت التربية الإسلامية على توفير المعطيات اللازمة للفرد المسلم ، وساعدته على أداء دوره المنوط به في خلافة الأرض .

د - انطلقت التربية في الإسلام من أصليْن اثنيْن ، هما : الكتاب والسنة ،

فكان المنهج التربوي ربّانياً ، يقوم على مرتكزات العقيدة في تكوين الفكر ، وتهيئة السلوك ، حيث لا وثنية ولا شرك ، بل إقرار الله سبحانه بالألوهية ، واختصاصه بالربانية ، بعيداً عن الركाम المتكّسد من الزّبد الطافي الذي كان يسود العالم لحظة انبلاج فجر الإسلام .

وقد آتت هذه التربية أكلها طيبة مثمرة ، فكان جيلُ الصحابة الكرام - الذين تربّوا على فكر القرآن وفي مدرسة رسول الله ﷺ - جيلاً فريداً من نوعه ، إذ تحدّى الصعوبات على اختلاف أنواعها ، وتعدّد أشكالها ، وحقق مفهوم الخيريّة ؛ التي ذكرها الخالق العظيم في نص القرآن الكريم ، فقال عز وجل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وقد واجهت الدعوة الإسلامية الضلالَ وهو يستشري في نواحي المجتمع ، ويضرب أطنابه هنا وهناك ، فتمّ التركيز على تنشئة الفرد وفق عقيدة سليمة ، وحصل تغيير كبير وواسع في المفاهيم ، والعادات ، والأفكار ، والتوجّهات ، حيث انفصل المسلمون بشكل بيّن عن الضلال والجاهلية ، في : الأحاسيس ، والولاء ، والتناصر ، والتعامل .

وهكذا كانت التربيةُ تهذيباً للإنسان في فكره وسلوكه ، وتغذيته بالمعرفة الصحيحة ، وتعزيز ثقته ، وتنمية شخصيته ، والارتقاء بمداركه ؛ ليكون وارثاً صالحاً ، وفزّاداً مُستخلفاً في الأرض .

وعملت التربية الإسلامية على إعداد الطفل إعداداً متألّفاً ، فبنّت فكره ، واعتنت بجسمه ، وصحّحت نظرتّه ، ونقلت إليه الثقافة الهادفة ، وأرست فيه القيم والمثل ، وغرست المبادئ والأخلاق ، فنتج عن ذلك جيلٌ راقٍ في عقله ونفسه وجسمه وخُلُقهِ .

وتعمل التربيةُ في الإسلام على ربط الدنيا بالآخرة ؛ لتكتمل جوانب الحياة بمختلف الأنشطة والفعاليات ، وهذا يساعد على تعزيز القوة الروحية في المتعلّم .

وقد أشار « سيربرستن » إلى هذه الفكرة ، فقال : « لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً ؛ أنَّ التربية هي الجهد الذي يقوم به آباءُ شعبٍ ومربُّوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها . إنَّ وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية جيدة »^(١) .

وبذا تتحقَّق للنشء الحياة الكاملة ، والتربية الحسنة ، والإعداد الجيد ، إذ تعمل التربية على تكوين النظرة الشاملة للعقيدة والحياة والكون ؛ ليؤدي كل فرد في الجيل دوره المرسوم له ، ويتغلب على العقبات التي تواجهه مهما كانت كأداء ، وبذا يتحقق للمجتمع الإنسان الكامل في شخصيته ، وتفكيره ، وأخلاقه ، من خلال التكثيف والتلاؤم بين الفرد وبيئته التي يحيا في ربوعها ، وهو يقوم بوظيفته في الحياة .

وهكذا يتلقى الطفل في الإسلام معلومات واضحة عن العبادة والأخلاق والمعاملات والآداب ، ويتحرك لتجسيد أهدافٍ مرجوة متكاملة ، بحيث تعمل التربية على تركية النفوس ، وتحقيق معانٍ فاضلة في النفس الإنسانية ، كالأخوة ، والمودة ، والمحبة ، وكل ذلك يعمل بشكل متضافر في إطار العملية التربوية المستمرة .

إنَّ من أهم تطلُّعات التربية في الإسلام : أنها تعمل على تغيير الواقع ، وتطوير الحياة ، ومواجهة التحديات ، ومحاربة التقاليد الموروثة التي تستعبد الناس القائلين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أُولَٰئِكَ حَتَّكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ [الزخرف : ٢٣ - ٢٤] .

فليست التربيةُ عملية تلقين ، ومحاكاة ، واعتماد على الغير ، بحيث

(١) التربية الإسلامية الحرة ؛ لأبي الحسن الندوي (٧٥) .

تضعف قوّة الابتكار في الأفكار والآراء ، بل التربية طريقة جادّة ، تُثير قوّة التفكير ، وتُحرّك الدوافع النفسية ، فينتبه المتعلّم ، ويفكر ، ويعمل بجِدّ ونشاط .

والتربية بناءٌ للإنسان من مختلف جوانب حياته ، وتهذيبه بالعقيدة الصحيحة ، والأخلاق القويمة ، فأمةٌ بلا أخلاق تحيا بعبثية وضياع . قال الشاعر :

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإنْ همُ ذهبَتْ أخلاقُهم ذهبُوا
إن إنشاء جيل واع مثقف ، يتطلب من المجتمع أن يرعى أبناءه الرعاية المثلى ، ويؤهلهم التأهيل الصالح ؛ ليقوموا بتبعات الأمانة ، ومسؤولية الدعوة إلى الله عز وجل .

ومنْ يستقرئ القرآن الكريم والسنة النبوية يجد المبادئ التربوية ، وضوى معالمها ؛ تترى ، وتتأصل ، وتشعّب ، فالتربية القرآنية تُعنى بالفكر الإنساني ، والسلوك الحيوي ، والمعاملات المتداخلة في الواقع .

وقد أرسل الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ ليربّي الناس على الخير والحق والفضيلة ، ويزكّي نفوسهم ، ويطهرها من أدران الجاهلية والضلال ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ^(١) .

وأدرك سيدنا إبراهيم - عليه السلام - أهمية التعليم والتربية ، ودورهما في بناء الفرد والمجتمع ، فدعا للأمة المسلمة أن يبعث الله سبحانه فيهم رسولا يقرأ عليهم ، وينشر العلم بينهم ، ويُبَلِّغهم ما يُوحى إليه من دلائل وحدانية الخالق ، وصدق الأنبياء والرسل ، ويعلمهم الكتاب المنزل ، ويفهمهم معانيه ، ويطهرهم من الشرك والمعاصي ، فقال : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ

(١) ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ : العرب المعاصرين له ﷺ .

فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ١٢٩﴾ .

ولذا قال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم»^(١).

وقد أصبح جيلُ الصحابة مضرب المثل في كل شيء خَيْرٌ ، وما ذلك إلا للدور التعليمي والتربوي الذي قام به رسول الله ﷺ ، حيث وجَّه سلوك الكبار ، وعزَّز تعلُّم الصغار ، وساعد على إيجاد الانسجام الكامل بين الإنسان والإسلام ، فكان الإشراف النبوي يُعنى بال ضبط السلوكي ، والإيضاحي ، واتباع منهج معقول ، مع الهدوء والرفق ، فإذا بالتربية النبوية تُعلِّم الطاعة والنظام .

والملاحظُ على دعوة النبي ﷺ في تربية الأولاد: «الرحمة والحنان؛ في أسلوب جذَّاب وشيِّق للتعليم ، يأخذ بأيدي الصَّغار برفق ، ويدلُّهم على طريق الخير بتؤدة؛ وصولاً للإتقان ، وتحقيق الأهداف المرسومة»^(٢).

وها هو القرآن الكريم يؤكد على تربية النفس ، وضرورة تزكيتها ، وتطهيرها ، كأثرٍ من آثار التوازن؛ الذي دعا إليه الإسلام ، أما مخالفة الحق ، والنأي عن الوسطية ، وإتباع النفس هواها وشهواتها ، فإنما هو انفلات من الانضباط ، وإخلادٌ إلى الأرض .

يقول الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿۱﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿۲﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿۳﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿۴﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]^(٣).

ومن أجل ذلك كان التركيز على التوازن في التربية ، ومراعاة الجانبين:

(١) رواه أحمد (١٢٧/٤) وابن حبان (٦٤٠٤) والحاكم (٦٠٠/٢) والبزار كما في كشف الأستار (٢٣٦٥).

(٢) حق الوالدين على الأبناء ، ليوسف علي مديوي (ص ١٠).

(٣) ﴿زَكَّاهَا﴾: طهرها وأنماها بالتقوى. ﴿دَسَّاهَا﴾: نَقَّصَهَا وأخفاها وأخملها بالفجور.

المادي والروحي ، فالإسلام كتلة واحدة ، ووحدة مترابطة داخل النفس ، وخارجها في الواقع ، وليس من عمل يقوم به الإنسان مستقلاً وحده ، بل كل عمل يؤدي إلى عمل آخر ، فالارتباط وثيق بين مختلف الأفعال والأنشطة ، وكل جانب يؤثر على بقية الجوانب .

إن السمة الواضحة في التربية الإسلامية هي التوازن بين المادية والروحية ، والعمل والعبادة ، والفرد والجماعة ، والواقع والمثالية . . .

ومن سمة التوازن ينبثق الفرد المنتج ، ذو التصور الشامل لدقائق الحياة وأهدافها ، ولتقدير القيم ، والموازنة بين الروح والعقل ، والدنيا والآخرة ، ومن خلال الشعور برقابة إلهية لكل ما تخفي الصدور ، فالكامل مشمول بالخضوع لله الواحد القهار .

كما نجد أن التربية الإسلامية تُعَدُّ الإنسان ليكون راقياً ، صادقاً ، ذا سلوك إيجابي ، يتحمل مسؤولياته ، ويقوم بواجباته ، ويناصر الفضيلة ، وينأى عن الرذيلة ، وهو يرنو ببصيرته إلى الآخرة ، حيث الثواب والأجر من الله عز وجل ؛ القائل : ﴿ إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّكُمْ مُجْرِمًا فَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۚ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ ﴾ [طه : ٧٤ - ٧٦] .

فنظام التربية في الإسلام يجعل الإنسان يحيا في سلوك متوازن ، فهو لا يحيا لدنياه وحدها ولا يدعها هملاً ، بل يبني الحياة ، ويجعلها مزرعة للآخرة ، وجسراً يعبر عليه وهو مليء بالخير والحسنات ، فالتوازن هو سبب الفوز في الآخرة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وأكدت السنة النبوية ضرورة التوازن في التربية ، فالحياة وحدة متكاملة ، لا تصح إن وقع خللٌ ما فيها ، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه : أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ ، فَقَالَ

بعضهم: لا أتزوَّج النساء ، وقال بعضهم: لا آكلُ اللحم ، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فَحَمِدَ اللهَ ، وأثنى عليه ، فقال: «ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا؟! لَكُنِّي أَصْلِي ، وأنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأتزوَّج النساء ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنتي فليس مِنِّي»^(١).

فَمَنْ خَالَفَ سُنَّةَ المصطفى ﷺ فقد ضلَّ طريق الصواب ، وحاد عن التربية النبوية الفضلى؛ التي تجمع بين الدنيا والآخرة ، والتمتع بطيبات الحياة وحلاوة العبادة.

وعَلَّقَ الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي (ت ٦٥٦هـ) على الحديث السابق فقال: «إِنَّ عِبَادَةَ الله إِنَّمَا هِيَ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ الْوَاجِبَةِ وَالْمَنْدُوبَةِ ، واجتناب نواهيه المحظورة والمكروهة. وما مِنْ زَمَانٍ مِنَ الْأَزْمَانِ إِلَّا وَتَوَجَّهَ عَلَى الْمَكْلَفِ فِيهِ أَوَامِرُ أَوْ نَوَاهٍ ، فَمَنْ قَامَ بِوُضُوءِ كُلِّ وَقْتٍ فَقَدْ أَدَّى الْعِبَادَةَ ، وقام بها. فإذا قام بالليل مُصَلِّياً فقد قام بوظيفة ذلك الوقت ، فإذا احتاج إلى النوم لدفع ألم السَّهَرِ ، ولتقوية النفس على العبادة ، ولإزالة تشويش مدافعة النوم المشوَّشة للقراءة ، أو لإعطاء الزوجة حقَّها من المضاجعة؛ كان نومه ذلك عبادةً كصلاته. وقد بَيَّنَّ هذا المعنى سلمانُ الفارسيُّ لأبي الدرداء بقوله: لَكُنِّي أَقُومُ وَأَنَامُ ، وَأَحْتَسِبُ فِي نَوْمَتِي مَا أَحْتَسِبُ فِي قَوْمَتِي. وكذلك القول في الصيام. وأما التزويج فيجري فيه مثل ذلك ، وزيادة نيَّة تحصيلين الفرج والعين ، وسلامة الدِّين ، وتكثير نَسْلِ المسلمين. وبهذه القصود الصحيحة تتحقق فيه العبادات العظيمة»^(٢).

وَتُعْنَى التَّربِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ بِأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ ، هُمَا:

(أ) الْإِنْسَانُ.

(ب) الْمَجْتَمَعُ.

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٨٦/٤ - ٨٧).

فتعمل التربية على إيجاد الإنسان المتكامل ، القوي ، المهدّب ،
المتصف بالخلق الحميد ، كما تعمل على إيجاد المجتمع السعيد ،
المستقر ، الرائد في كل المجالات .

وهذه التربية تقتضي تغييراً على الأصعدة كافة: الفكرية ، والاجتماعية ،
والاقتصادية . . . ومفتاح هذا التغيير يرتبط بالعلم ؛ الذي أشار إليه القرآنُ
الكريم في أولى آياته المنزلة على قلب سيدنا محمد ﷺ ، فقال الله عز وجل :
﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ - ٥] .

فإذا أقفر المجتمع من العلم ، وساد الجهل ، واستشرت عقاربُ الفتنة ،
فعندئذ تلوح علائم الخرافة ، وتتضح نُذُر الضياع والتلاشي وذوبان
الشخصية . قال رسولُ الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ
الْعِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبِضِ الْعُلَمَاءِ ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ
رُؤُوساً جُهَالاً ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » (١) .

فالتربية والعلم صنوان لا يفترقان ، ووجهان لدرّة واحدة ، حيث
يتضافران لتكوين الفرد الصالح ، وفق التوجيهات الإيجابية ، لإنشاء
الحضارة ، وإعداد المجتمع المأمول .

* * *

(١) رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣) .